4

آلية الاستعجال: وسائل الإعلام

تعمل وسائل الإعلام، من تلفزيون وإذاعة وصحف ومجلات وأفلام على توسيع أحاسيسنا، كما قال المحلل الإعلامي الكندي مارشال ماك لوهان Marshall Mc Luhan[1]. وقد كان التطور من الأفلام الصامتة إلى «الناطقة» ومن الأبيض والأسود إلى الأفلام الملونة، والتبديل الذي يجري حالياً للأفلام الكلاسيكية غير الملونة إلى أفلام ملونة كمبيوترياً، كل هذا كان شاهداً على جهود صناعة الأفلام في توسيع أحاسيسنا. كما يشهد التحول من البث بالأبيض والأسود إلى البث التلفزيوني الملون، والشاشات الآخذة في الكبر (وتلك الصغيرة المحمولة) بالإضافة إلى التقدم باتجاه تحسن نوعية الصوت والصورة DVD يشهد على جهود صناعة التلفزيون الرامية إلى توسيع خبراتنا الحسية وترسيخها في الزمان والمكان.

وخلاف تنمية أحاسيسنا بواسطة وسائل الإعلام، يسعى

التعليم إلى إحياء ماضينا الثقافي، وإغناء ذاكرتنا. والمدارس إذ تقوم بنقل المهارات والمعرفة المتراكمة فإنها تضعنا في صورة ثقافة الماضي أكثر مما تبني ثقافة المستقبل. وعلى الرغم مما نعرفه عن تطور الأطفال، فإن كثيراً من المدارس ما زالت تعتبر الطفل قارورة فارغة على خط إنتاج قوامه الصفوف الدراسية - كل صف يضيف إلى القارورة قليلاً، والقارورة تمثل ذاكرة الطفل. ما تفشل المدارس في تقديره هو أن «القوارير» تفيض بالمعلومات عن الحاضر، أما المستقبل فتهتم به وسائل الإعلام التي تتضمن الآن الانترنت.

التلفزيون

مدخل متزايد هو التلفزيون. وما هو متوفر الآن على الانترنت، فريد في أنه يتيح الوصول، بلا وسيط، إلى أحداث حيّة، في جميع أرجاء العالم. الأمر الذي لا تقوم به أي وسيلة إعلامية أخرى. وتقديم الأخبار خير مثال على خصوصية التلفزيون. أما الصحف والأفلام فتقدم الأحداث بعد حدوثها. المذياع يستطيع أن يغطي الأحداث لدى حدوثها لكن الحدث تلونه الكلمات وصوت المذيع. قلة من المذيعين يتمتعون بمصداقية أورسون ويلز Orson Welles الذي استطاع في برنامجه الإذاعي المشهور «حرب العوالم» Wars Of The Worlds إقناع مستمعيه أن الأرض تخضع لهجوم من قبل المارتيين Marteans. كما أن المذياع يحرض الخيال إذ يفرض أن نترجم الكلمات إلى صور محسوسة.

في كل الأحوال فإن التلفزيون يشغل حواسنا فوراً ولا يتطلب دائماً وساطة المذيع كي يفهم. وحتى الأطفال الصغار لا يحتاجون إلى فهم الوصف اللفظي للمآسي التي ينقلها التلفزيون ـ فالصور المرعبة تتحدث عن نفسها. ولما كانت المعلومة التلفزيونية لا تحتاج إلى الترميز وفك الرموز لفظياً كي توسع خبراتنا، فإنها سهلة الاستيعاب من قبل الأطفال الصغار وأحياناً تستعجلهم لمشاهدة أحداث مريعة لم يشهدها أبناء هذه المجموعة العمرية من قبل.

منذ سنوات عدة، فرضت هذه الحقيقة نفسها علي بطريقة مزعجة. فبعد فترة بسيطة على تغطية الإذاعة والتلفزيون لقصة المرأة الشابة التي أغرقت ولديها بأن دفعت سيارة الأسرة داخل بركة، بدأت أتلقى مكالمات هاتفية من أمهات قلقات من جميع أرجاء البلاد سمع أطفالهن القصة وشاهدوا السيارة أثناء إخراجها من الماء. وكان الأطفال يطرحون أسئلة مثل: «مامي، هل ستغرقيننا؟» شجعت تلك الأمهات على طمأنة أطفالهن، وعناقهم، وتأكيد حبهن لهم وأنهن لن يفعلن ما يؤذيهم أبداً. على الرغم من ذلك أنا متأكد من أن تأثير هذه القصة كان كبيراً على الأطفال في كل مكان، فالمخاوف والشكوك لا تمحى بسهولة.

لذلك، بوجود التلفزيون، لم يعد بالأطفال حاجة إلى القراءة، أو ترجمة كلمات المذيع، كي يشهدوا أحداثاً تطرأ في أماكن بعيدة. فقد أصبح التلفزيون الآن بالنسبة للطفل بمثابة

المذياع بالنسبة للكبار. فالمذياع يضع الكبار في صورة الأحداث الإخبارية والدراما والتسلية في البيت دون الحاجة إلى القراءة. والتلفزيون يضع الأطفال أمام الأخبار والدراما والتسلية دون الحاجة إلى ترجمة الكلمات إلى صور. فالصور كلها أمامهم.

من هنا كان التلفزيون مرغوباً من قبل الأطفال لأنه يتيح لهم الاطلاع بلا وسيط على معلومات لم تكن متاحة سابقاً. وتظهر الإحصائيات أن الأطفال الصغار يشاهدون التلفزيون أكثر من أي مجموعة عمرية أخرى، وأن الوقت الذي يقضيه الجيل الفتي في مشاهدة التلفزيون يتناقص مع تقدمهم في العمر[2]. هذه الظاهرة من مهام المدرسة، لحد ما. فالمراهقون يمضون في المدرسة وقتاً أقل من أطفال المدرسة الابتدائية، إلا أنهم يشاهدون التلفزيون لفترة أقصر. فالتلفزيون يشد المراهقين بدرجة أقل. لأن إمكانياتهم العقلية تدفعهم إلى توسيع مداركهم عن طريق وسائل الإعلام الأكثر تعقيداً كالمذياع أو المطبوعات.

السيطرة الأبوية المخففة: على الرغم من أن التلفزيون يزيل كثيراً من الموانع الثقافية التي تحجب المعلومات التي كانت تعترض سبيل الجيل الفتي في أحد الأيام، إلاّ أنه يخفض عقبة أخرى أيضاً ليست محدودة بمجموعة عمرية محددة. ألا وهي عقبة مراقبة الأبوين. فالأبوان عادة لديهما فكرة ما عن الكتب والمجلات والأفلام التي يرغبان، أو لا يرغبان، أن يقرأها أولادهما أو يشاهدوها. لكن بوجود التلفزيون يستحيل معرفة ما سيعرض قبل أن يعرض فعلاً. والتلفزيون يجعلنا

عاجزين نسبياً، وبشتى الطرق، عن السيطرة على تدفق المعلومات إلى أطفالنا. لكن الكابل التلفزيوني VCR، ورقاقة V، يجعلان ذلك القول أقل دقة مما كان في الماضي. على الرغم من أن كثيراً من الآباء قد تكيفوا مع عدم ممارسة السيطرة على التلفزيون لدرجة أنهم ما زالوا يشعرون بالعجز ويفشلون في استخدام وسائل المراقبة المتاحة.

التجانس:

التلفزيون لا يسهل الوصول إلى المعلومات إلى الصغار ويخفف من سيطرة الأبوين فحسب، بل يؤدي إلى التجانس الاجتماعي والعرقي والثقافي والعمري. وقد كتب الناقد المسرحي لويس كرونينبرغر Louis Kronenberger في سنة 1966:

> أعتقد أن ما يجب قوله هو أن التلفزيون ليس مجرد قوة كبيرة في الحياة الحديثة، وإنما هو الحياة الحديثة عملياً. وقد يتساءل أحدنا: ما الذي لا يفعله هذا الجهاز؟ إنه يعطي الجميع، من فقير أو غني، من محتجز في الثلج، أو طريح الفراش أو بطيء الفهم، الوقت، والطقس، والأخبار الخفيفة، والأخبار المهمة، وأخبار الرياضة، أحياناً في عناوين يتلوها أو صور يعرضها، ينقلنا أحياناً إلى مسرح الجريمة أو إلى حفلات التتويج. إنه يعزف لنا ويرقص، يصطحبنا إلى المسرح والسينما والحفلات الموسيقية وألعاب الكرة، كما إلى قفزات التزلج على الجليد ومباريات التنس. إنه يولد الأطفال، ويحث المراهقين، ويحلل نفسيات الراشدين، يشخص الفيضانات والحرائق

والزلازل، يحملك إلى إحدى قمم جبال الألب أو إلى قاع أحد المحيطات أو يدوِّم بك في الفضاء، يريك نمراً يُقتل أو يقتل. يتحول إلى منبر انتخابي أو إلى مكان للعبادة، يخمن عمرك ووزنك وعملك وسرك، ويصطحبك في جولة في السجون وملاجئ الأيتام والمصحات العقلية.يريك جنازة وينستون تشرشل، Winston Charchill، ومقتل لي أوزوالد Lee Oswald. يعلمك الفرنسية، والرقص على الحبال، ونداءات الطيور، والإسعاف الأولي، يقدم لك النقاش والحوار وحلقات البحث وورشات العمل، والمسابقات، ويروي لك النكات والقصص الطريفة والأمثال المبتذلة والملاحظات البارعة، والنكات[3].

التلفزيون يوسع حواس الجميع، دون تفريق. قال ماك لوهان Mc Luhan إنه «يعيد توزيعنا القبلي» في أن:

الدارة الكهربائية أطاحت بنظام «الزمان» و«المكان» وتضعنا فوراً وباستمرار أمام مواجع الأشخاص الآخرين. لقد أعادت بنية الحوارعلى مستوى عالمي.التلفزيون يرفع لواء التجديد الكلي، ويضع حداً لضيق التفكير النفسي والاجتماعي والاقتصادي والسياسي. لقد أصبحت التجمعات القديمة المدنية والحكوماتية غير عملية. وليس أبعد عن روح التكنولوجيا الجديدة من «مكان لكل شيء وكل شيء في مكانه»[4].

ربما يبالغ ماك لوهان في الحديث عن الكسل والجمود البشري، إلاّ أن التجانس في الخبرة البشرية حقيقة لا جدال فيها. فقد شاهد نحو مليار شخص الألعاب الأولمبية التي جرت

في سيدني سنة 2000. خبرة بشرية كهذه، وهي واحدة من تجارب كثيرة (فالمسلسلات الأميركية رائجة في جميع أرجاء العالم، مثلها مثل المغنين وجماعات موسيقى الروك من انكلترة وإيرلندة والولايات المتحدة، وبلدان أخرى كثيرة) لابد أن يكون لها تأثير تجانسي. وحتى في جزر صغيرة نائية في الكاريبي، يعطي السكان دليلاً، في لباسهم وعادات طعامهم، على التجانس في الأذواق الذي ينميه التلفزيون.

كما ينطبق التجانس عبر الحدود الاجتماعية والعرقية والجغرافية وعلى الحدود العمرية. فما من شك في أن البرامج التلفزيونية ليست مصنفة عمرياً بشكل حاد. فبرامج الأطفال مثل بارني Barney وتيليتابي Telletubbies موجهة للأعمار الصغيرة جداً. كما أن برامج صباح السبت من أفلام الصور المتحركة وبرامج المغامرات موجهة للأطفال. لكن الأطفال الصغار يتابعون البرامج الموجهة للمشاهدين الأكبر سناً. فبرنامج دوسون كريك Dawson Creek يشاهده الأطفال بينما هو موجه لأواخر فترة المراهقة. يعالج هذا العرض، وأمثاله، مواضيع النشاط الجنسي والمخدرات والاضطراب العاطفي مما يقحم الأطفال في مواضيع ومشاكل لا تلائمهم عمرياً.

أسباب هذا التجانس، كما يقول المعلق التلفزيوني جيفري كوانJeffrey Cowan، اقتصادية بالدرجة الأولى:

> يعتبر التماثل والدعائية التي تميز التلفزيون - ولكثير من المشاهدين الحق في الاحتجاج عليها - من وظائف البنية

الاقتصادية الدقيقة للصناعة. وخلاف وسائل الإعلام الأخرى، كالكتب والصحف - التي تعتمد في دخلها على المستهلك كما على المعلن - فإن التلفزيون يعتمد اعتماداً كاملاً ووحيداً على الدعايات للحصول على موارده. وبما أن الغالبية العظمى من الشركات التي تعلن بواسطة التلفزيون تريد أن تصل إعلاناتها إلى المشاهدين من سكان المدن الذين تتراوح أعمارهم بين 18 و40 سنة، فأي دافع ذاك الذي يضغط لتطوير برامج تتوجه بشكل رئيسي إلى الأشخاص الذين تزيد أعمارهم عن واحد وأربعين، أو تقل عن ثماني عشرة أو أولئك الذين يعيشون في مناطق ريفية؟وإذا شعر الأشخاص المسنون أو الذين في منتصف العمر الذين يعيشون في قرية أمريكية صغيرة بأن التلفزيون يتجاهل أذواقهم ولا يقدم للأطفال مادة مغذية كافية، فإن لهم الحق[5].

فاستهداف مجموعة عمرية محددة لا يحرم الأطفال البرامج الملائمة لأعمارهم فحسب، بل يجبرهم على مشاهدة برامج موجهة لمشاهدين أكثر نضجاً. فبرامج عائلية مثل The Fantasy- To - Reality Teeter - Totter غالباً ما يشاهدها الأطفال. هذه البرامج تناوب بين الفانتازيا والواقع. وتستمد قيمتها من كونها تعرض الأطفال لأنماط متفاوتة من الحياة. إلاّ أن البرامج الأكثر واقعية قد تكون مزعجة في بعض الأحيان، خاصة للأطفال الصغار.

فخلال عقدي الخمسينيات والستينيات سيطرت أسر فانتازية على شاشة التلفزيون. فقدمت أفلام مثل (دع الأمر

للقندس Leave It To Beaver و(أبنائي الثلاثة) My Three Sons (والأب يعرف أكثر) Father Knows Best قدمت بيوتاً مجهزة تجهيزاً راقياً ونظيفة بشكل فائق. حيث الأب والأم جاهزان دائماً لتقديم النصح والتوجيه ورسم حدود التصرف. كانت المواضيع غالباً تلائم الأطفال والمراهقين، تتناول أموراً كالربح والخسارة، وإنجاز الوظائف البيتية، والمواعيد مع الجنس الآخر. وحتى العروض التي تؤذن بواقعية عقد السبعينيات أن تلحظ الأبوين المنفصلين، مثل (مسلسل التودد إلى والد إيدي) The Courtship Of Eddies Father (وعائلة باتريدج) The Patridge Family، ما زالت تقدم بيوتاً نموذجية وتطرح مواضيع تتركز حول الطفل.

ثم أتى عقد السبعينيات. خير من يصف التغييرات التي طرأت على الأسر التلفزيونية خلال هذا العقد هو بيغي تشارين Peggy Charen (التي كانت وراء مجموعة الدفاع عن العمل من أجل تلفزيون للأطفال)، والمؤرخ مارتين دبليو ساندلر Martin W. Sandler اللذان كتبا في أواخر عقد المحدلة البخارية:

> مع الثورات الاجتماعية التي شهدتها السنوات العشر الماضية، شهدت الأسر التلفزيونية تغييرات كبيرة. فما يسمى اليوم كوميديا الموقف يعالج مشاكل الحياة الحقيقية: كالخيانة الزوجية، والبطالة، والعجز الجنسي، والطلاق، وإدمان الكحول. قام نورمان لير Norman lear بثورة نوعية بتقديمه عروضاً تمزق الكليشات التلفزيونية القديمة. مود Maude بالنسبة لاستعراض الأسرة العاطفية

تمثل M * A * S * H بالنسبة للدكتور كيلدير Dr. Kildare. والواقع هو أن الزيجات السليمة الوحيدة التي تظهر على شاشة التلفزيون لا توجد إلاّ في الماضي أو في العروض الفانتازية. وقد أشار الناقد التلفزيوني جيف غرينفيلد Jeff Greenfield إلى أن الزواج في التلفزيون اليوم هو تقاطع بين نكتة بذيئة، وحلم رديء، ورحلة حنين إلى الوطن. فوجود زوجين معاصرين سعيدين في أي عرض تلفزيوني أشبه بأن تجد سيارة للأجرة في وسط مانهاتن الساعة 5 بعد الظهر - أمر محتمل لكنه بعيد المنال. وكثيراً ما يتعكر صفو الزيجات التلفزيونية الأولى بآلام مشكلات الحياة المنزلية المعتادة، من خيانة وعدم توافق، وعجز عن المعالجة. ويعيش الآباء المتفردون على عروض تتراوح بين سفينة الحب The Love Boat ومورك ومايندي Mork and Mindy وهيل ستريت بلوز Hill Street Blues[6].

ولكن بقدر ما تتغير الأشياء فإنها تبقى على ما هي. ففي نهاية عقد الثمانينيات عاد التلفزيون إلى نمط الأسرة الفانتازية الذي كان سائداً في الستينيات. وقد كتبت نورا إيفرون Nora Ephron في سنة 1988:

الدكتور كليف هاكستابل، آكابيل كوزبي Dr. Cliff Huxtable , Aka Bill Cosby جالس في غرفة المعيشة. تدخل زوجته كلير Clair من المطبخ وتسأله «ألديك متسع من الوقت يوم الخميس الساعة الرابعة؟» يفكر هاكستابل لحظة ثم يقول «نعم». اليوم الجمعة بعد الظهر يدخل إيلفين Elvin، زوج ابنة هاكستابل، إلى المطبخ. كلير

ترتدي بلوزة وتنورة رائعتين لونهما بيج يليقان بالاحتفال بالنجاح، تخرج شواء من الفرن وتدهنه بالزبدة السائلة، وتقول لصهرها: «هل تحب أن تبقى لتناول العشاء؟».

وهكذا تجري الأمور في منزل كوميديا الموقف الفائق النجاح. هاكستابل طبيب العينية النسائية يعرف أنه ليس مرتبطاً بأي موعد يوم الخميس الساعة الرابعة دون الرجوع إلى دفتر مواعيده. وزوجته، وهي شريكة في شركة محاماة ولديها ثلاثة أو خمسة أطفال، ما زالت تعيش في المنزل وليس هناك من يساعدها في الأعمال المنزلية، ولديها من الوقت والطاقة ما يكفي لأن تطبخ عشاء لذيذاً في يوم عادي من أيام الأسبوع. هناك شيء واحد واضح وهو أن المشاهد الأمريكي ما زال يحب العالم الخيالي الذي تصوره كوميديا الموقف. فاستعراض كوسبي Cosby Show كان يصنف في أعلى الدرجات وكذلك روابط عائلية Family Ties. هذه العروض مبهجة ولطيفة بلا حدود[7].

إذا كان عقد الثمانينيات عودة إلى الفانتازيا، فقد عادت المسلسلات العائلية في التسعينيات إلى الواقعية. ففي (روزيان) Roseanne، تخوض أسرة عاملة معركتها في تربية الطفل وفي مواضيع الجنس والاقتصاد. وفي مسلسل الجميع يحبون ريموند Every Body Loves Raymond، يعيش زوجان في جوار أنسبائهما الفضوليين وتدور المؤامرات حول الصدامات التي تنجم عن هذه الترتيبات المعيشية. وفي (ملك الملكات) King Of Queens يعيش زوجان عاملان مع والد الزوجة الأرمل.

يعالج العرض، ، إلى جانب أمور أخرى، المشاكل التي تترتب على إيواء وخدمة الأب في منزل طفله الذي أصبح كبيراً. تجري أحداث مسلسل (السماء السابعة) Seventh Heaven حول أسرة مختلة وظيفياً يحاول الوالدان فيها التوفيق بين متطلبات الوظيفة وتربية الأطفال، فيتعايش أطفالهما مع ممارسات نظام غير تقليدي.

القاسم المشترك بين هذه التأرجحات عبر العقود بين الفانتازيا والواقعية في البرامج التلفزيونية عامة، وفي البرامج العائلية بشكل خاص، هو أنها تتوجه إلى مجموعة عمرية تتراوح بين الثامنة عشرة والتاسعة والأربعين.. وبذلك يتعامل المنتجون التلفزيونيون مع الأطفال تعاملهم مع الكبار. وعلى الرغم من أن ذلك غير مؤذٍ في كثير من الحالات، إلاّ أن مشاهدة عروض مثل (الجميع يحبون ريموند)، و(مالكوم في الوسط) Malcolm in the Middle، ومن يريد أن يصبح مليونيراً Who Wants To a Millionaire، والناجي Survivor، أو الخطر الداهم ! Jeopardy قد تسن سابقة للأطفال أن يشاهدوا عروضاً أخرى للكبار مثل ER أو NYPD Blue أو JAG، أو لمسة الملاك Toushed By an Angel. بسبب مشاهدة عروض كهذه، يبدو الأطفال الصغار على معرفة بالأمور الأساسية في زماننا ـ مثل المخدرات والعنف والجريمة والطلاق وتربية الأطفال من قبل أحد الوالدين دون الآخر، والتضخم النقدي، وما إليها. أما كيف يمكنهم استخدام هذه المعلومات فأمر آخر. فالتلفزيون

يعرض الأطفال لخبرات ما كانوا ليعرفونها لولاه. لكن التعرض لهذه الأمور شيء، وفهمها شيء آخر. فإتاحة التعرف على خبرات معينة لا يعني أنها تصبح أقل إرباكاً أو أقل إثارة للاضطراب.

لذلك فإن أحد تبعات التجانس التلفزيوني على الأطفال والتأرجح الذي يدوم عقداً بين الفانتازيا والواقع قد يؤدي إلى ولادة ما يمكن أن نسميه التكلف الثقافي الزائف. فالأطفال الذين هم في سن المدرسة اليوم يعرفون أكثر بكثير مما يفهمون. فهم قادرون على التحدث عن الانشطار النووي، وديدان الأنابيب على عمق 20,000، والمكوك الفضائي، وغرف الثرثرة، والتزلج على شبكة الانترنت. كما أنهم يوحون بأنهم مستعدون لمناقشة مواضيع الجنس والعنف والجريمة. إلاّ أن معظم هذه المعلومات نظرية. ومجرد الاستماع إلى أطفال دون سن المراهقة يتحدثون عن دوسون كريك Dawson's Creek كاف لتقدير فهمهم الوهمي لتداخلات البرنامج المعقدة. لكن الكبار غالباً ما يؤخذون بهذا التكلف الثقافي الزائف ويعاملون الأطفال كما لو أنهم على الاطلاع الذي يبدو عليهم.

المفارقة هي أن التكلف الثقافي الزائف، الذي هو بتأثير من استعجال التلفزيون نمو الصغار، يشجع الآباء والكبار على استعجال نموهم أكثر. لكن الأطفال الذين يبدون، ويتصرفون ويتحدثون كالكبار ما زالوا يشعرون ويفكرون كما يفعل الأطفال. وهذا طبعاً ليس وقفاً على الأطفال. فنحن، إذ نتقدم

بالعمر، لا نشعر أحياناً أننا بالعمر الذي يبدو على أجسامنا. فكثيراً ما لا يتواكب العمر النفسي مع العمر الجسدي. وأي فتاة صغيرة تتزين بمساحيق التجميل وترتدي ثياباً مغرية، ما تزال تشعر وتفكر كما تفعل الفتيات الصغيرات، وليس كالنساء الصغيرات.

والإعلان طريقة أخرى يستعجل التلفزيون بها نمو الأطفال وقد اكتسب هذا القول مصداقية خاصة في الثمانينيات مع الاندفاع الذي تبنته لجنة الاتصالات الفيدرالية Federal Communications Commision (FCC) نحو التحرر من الأنظمة. في سنة 1984 أسقطت لجنة الاتصالات الفيدرالية سياسة اتبعت لعشر سنوات ضد بث إعلانات تجارية «بطولها الكامل» ضمن برامج الأطفال. بينما كانت الرسالة الإعلانية تفصل بوضوح عن البرنامج من قبل، وهذا لم يعد صحيحاً بالنسبة لكثير من برامج الأطفال. وخير مثال على الروح التجارية والتوكيد المفرط على الربح في ترويج المنتج للأطفال هو جوائز غولدن ماربل Golden Marble التي تمنح للحملات الدعائية الأكثر نجاحاً الموجهة للأطفال. لكن المنتجات التي تروج في هذه الدعايات لا تعزز رفاهة الأطفال. وقد كان أحد الفائزين من مشجعي الجسم النشيط لتشريح الغريب Alien Autopsy. كما فازت منتجات أخرى تروج لأغذية عالية الدسم والسكر والملح للأطفال بجوائز أيضاً. وقد حصلنا على إحصاءات تثير القلق عما حدث في عقد التسعينيات قدمها

المركز الإعلامي في مركز دجادج بيكر لتوجيه الطفل في بوسطن Judge Baker Child Guidance Center:

- الأطفال يستهلكون أربعين ساعة من وسائل الإعلام في الأسبوع و20,000 إعلان في السنة.
- تنفق الشركات ما يربو على 12 مليار دولار في السنة في التسويق للأطفال ـ بما يزيد بقدر عشرين ضعفاً عن المبلغ الذي كان ينفق قبل عشر سنوات.
- ثلث الفتيات في عمر اثني عشر سنة يجربن طرق إنقاص الوزن باتباع حمية أو بالاستقياء أو الأدوية الملينة أو حبوب إنقاص الشهية.
- عدم الرضا عن شكل الجسم يرتبط ارتباطاً مباشراً بمتابعة الفتيات قراءة مجلات الأزياء.
- الألعاب الأكثر مبيعاً والتي تغطى إعلانياً أكثر من غيرها ترتبط بوسائل الإعلام.
- الأطفال يلعبون بشكل أقل إبداعاً بالألعاب المرتبطة بالأفلام والتلفزيون.
- الأطفال أكثر تأثراً بالدعايات من الكبار.
- المعلنون يستشيرون الأطباء النفسيين في تطوير استراتيجيات التسويق الموجهة للأطفال.
- الولايات المتحدة هي الأقل إشرافاً على الإعلان للأطفال بين معظم ديموقراطيات العالم الأخرى[8].

لذلك فقد أصبح الإعلان في العقود الثلاثة الأخيرة أكثر

تمييزاً بين الأعمار، لكن البرامج لم تفعل. فالأطفال في الولايات المتحدة اليوم يقفون وراء إنفاق 500 مليار دولار في العام إذ يقصفون بإعلانات لمنتجات تتراوح بين الألعاب العنيفة والأغذية التافهة. والأطفال أقل قدرة على تمييز الدعايات من المراهقين والكبار، لذلك فإنهم أكثر تأثراً بها. والمعلنون يستعجلون الأطفال نحو الاستهلاك غير الصحي تغذوياً ونفسياً.

مرآة التلفزيون: التلفزيون يستعجل الأطفال بطرق أخرى. فقد قيل إن التلفزيون مرآة الكترونية تعكس صورة غامضة غير واضحة المعالم. ولما كان المجتمع معقداً ومتعدد الأوجه، فإن البث يعكس مجموعة من الصور. وهذه ليست دقيقة التركيز أو واضحة تماماً. . فالصورة الغامضة أو المشوشة توحي بأشياء مختلفة لأشخاص مختلفين وتعني أشياء مختلفة لشخص واحد في أوقات مختلفة، حسب الوضع والحالة النفسية[9].

من هنا كان التلفزيون مفيداً في اكتشاف من وما نحن. وإذ نجد أنفسنا في شخصية تلفزيونية فإننا نكتشف المزيد عن أنفسنا أو نحاول أن نجعل أنفسنا أكثر شبهاً بالشخصية التي وجدنا نفسنا فيها. والطريقة التي يصور الأطفال فيها تعكس المجتمع لهم، كما تقدم صوراً يجد الأطفال أنفسهم فيها ويحاولون محاكاتها. وقد كان ابني الأوسط دائماً يريد أن يكون مثل داني، Danny، ابن أسرة بارتريدج المضحك الأحمر الرأس.

ماذا يمكننا القول عن الأطفال كما يصورهم التلفزيون؟

إنهم جميعاً يحملون صفة واحدة ـ وهي النضج المبكر.

> أطفال التلفزيون على سوية مبالغ بها من التهذيب والمنطق الذي يتجاوز أعمارهم. فجميع الأطفال يطلون علينا برؤى متميزة. تلامس في بعض العروض حدود الفلسفة غير المتوقعة. وكأن العبرة المستقاة هي «استمع إلى صغار الأطفال باهتمام فهناك حقائق كبيرة تتعلمها منهم»[9].

وهناك مقولات إضافية في تصوير الأطفال على هذا الشكل العاقل (مثلما يصور مالكولم في عرض Malcolm in The Middle بما لديه من رؤية خارقة في شؤون الكبار). بالنسبة للأطفال فإنهم يقدمون نماذج من النضج العاطفي والفكري المبكر، مما يشكل نوعاً من استعجال التصرف بطرق حكيمة وناضجة. أما بالنسبة للكبار فقد يضيف تصوير الأطفال بهذا الشكل إلى توقعاتهم أن الطفل يستطيع أن يكون أكثر حكمة، وأكثر تبصراً، وأكثر فهماً مما يحق لنا أن نتوقع.

المجلات والكتب:

كان للتلفزيون تأثير أساسي على وسائل الإعلام الأخرى التي تصل إلى الأطفال، كالكتب والمجلات. ويمكن القول إن للتلفزيون الفضل في الدمار الحقيقي لآخر لبنة من لبنات الثقافة الشعبية الأمريكية ـ وهي الكتب المصورة، والمجلات الورقية، والمسلسلات الإذاعية والسينما الجبلية. وقد كانت الأرض القاحلة التي صورها نيوتون ميناو Newton Minnow في الحقيقة

فيضاناً غمر ديراً كان فيما مضى مملوءاً قمامة أسوء بكثير من الدبش العديم الملامح للتلفزيون العادي[10].

وما من شك في أن كتاباً مصوراً عن بغس باني Bugs Bunny لا يستطيع منافسة فيلم كرتون لشخصية بغس باني: وليس لكتاب باور رانجر Power Ranger المصور أن ينافس برنامج باور رانجر. ومهما كانت الكتب المصورة تافهة إلاّ أن توقفها عن الصدور ليس حميداً من زاوية أن كثيراً من الأطفال تعلموا القراءة عن طريق هذه الكتب. كانت الكتب المصورة تشكل دافعاً قوياً للقراءة لا يضاهيه إلاّ رغبة الطفل في الاستيقاظ باكراً صباح السبت ليشاهد أفلام الكرتون.

في الستينيات بدأت الكتب المصورة تخلي مكانها لمجلة ماد Mad، التي كانت موجودة منذ نحو خمسين سنة، بقدر عمر التلفزيون تقريباً. اكتشفت مجلة ماد أن الجمهور (التلفزيوني) الجديد يجد المشاهد والمواضيع المستقاة من الحياة العادية مضحكة مثل أي شيء يعرضه ليل أبنار Lil Abner (الذي يصور الحياة في قرية دوغباتش النائية). «قامت مجلة ماد بنقل عالم الدعايات إلى عالم الكتب المصورة وفعلت ذلك في الوقت الذي كانت الصورة التلفزيونية قد بدأت تطغى على الكتب المصورة بالمنافسة المباشرة»[11] تتميز مجلة ماد أنها لا تقدم للأطفال الخيال وإنما النقد الساخر وقد كتب آل فيلدشتاين Al Feldstein رئيس تحرير ماد السابق:

ما كنا نفعله هو أننا كنا نأخذ عبثية عالم الكبار الذي كان

الصغار يواجهونه ونظهر للأولاد أن عالم الكبار ليس مطلق السلطة، وأن الأبوين يطلبان من الأولاد الأمانة وعدم الكذب فيما هم يغشون في حساب ضريبة الدخل. كنا نقول لهم إن هناك كثيراً من النفايات في العالم ولابد لكم أن تعرفوا ذلك. وما كل ما تقرأونه في الصحف صحيح بالضرورة. ومعظم ما ترونه على شاشة التلفزيون أكاذيب. ولابد لكم أن تتعلموا التفكير بأنفسكم[12].

المهم في مجلة ماد هو أن النقد الساخر لا يفهم تماماً إلاّ بعد أن يصبح الأطفال مراهقين. وقد جاء في أحد أعداد كانون أول/ ديسمبر 1999 تحت عنوان «خزانة مونيكا» كتبت امرأة مذعورة تقول:

إن حياتي تطير بعيداً عن سيطرتي. لقد توصلت إلى حقيقة محزنة وهي أنني أصبحت أكبر من أن أكون بيمبو Bimbo.

مجلة ماد إذن موجهة للمراهقين وليست مجلة أطفال. على الرغم من أن أعمار قرائها آخذة في التناقص. كانت المجلة أصلاً موجهة للمراهقين الأكبر سناً من خمسة عشر إلى سبعة عشر (طلاب المدرسة الثانوية)، ولكن في السنوات الأخيرة كان متوسط عمر القراء نحو ثلاث عشرة سنة. وإذ أصبح القراء أصغر أصبحت المادة أقل حشمة. ففي عدد شباط/ فبراير 2000، تحت عنوان دليل من 8 خطوات نحو ما يريد المراهق أن يكون WB Network Teen Wanabes جاء: «عندما تقومين بعمل مشين لا يليق أن تطلبي علامة أعلى بالإضافة إلى هذا العمل».

ما يجب فهمه حول مجلة ماد ليس المضمون وإنما الشكل. فالأطفال الذين استعجل نموهم بسرعة لديهم كثير من المشاعر والمخاوف والغضب والقلق لدرجة تجعلهم عاجزين عن التعبير. وقد كان المرح دائماً طريقة للتعبير عن المشاعر الخطيرة ـ فكل نكتة تقريباً فيها بعض المضمون الشائن الهجومي. وبهذا فإن مجلة ماد تقدم للناشئين راحة مرحة من ضغوط النمو السريع. وهي إذ تحول النشاط التربوي والمساومة إلى نكتة تمكن الناشئين من الابتعاد بأنفسهم عن التوترات الناجمة عن تعرضهم لهذا الكم من الأشياء في سن مبكرة. تعتبر مجلة ماد صمام أمان للتوتر لكن المؤسف أنها لا تلائم سوى الأطفال الأذكياء والمراهقين الذين لديهم مقدرة ذهنية تخولهم إدراك مضمون النقد الساخر.

كما عكست مجلات الفتيات القيم النسائية المتغيرة. في السبعينيات والثمانينيات كانت مجلات مثل السابعة عشرة Seventeen تقدم مقالات جادة عن السياسة والبيئة والمستقبل المهني بالإضافة إلى المقالات المعتادة عن الصحة والجمال والعلاقات. ولكن في التسعينيات كان هناك عودة إلى مقالات عن الاستعداد للزواج، وعن الحمية الغذائية، وتناقص عدد المواد الثقافية. إضافة إلى أن عارضات الأزياء في هذه المجلات أصبحن ناحلات بشكل متزايد. وكثير منهن يبدو عليهن فقدان الشهية. عارضات من هذا النوع يعكسن ضغوطاً وجهوداً إعلانية. وفي الوقت الذي أصبحت ثياب الفتيات

الصغيرات أكثر إغراء، تبدو ثياب الفتيات المراهقات أكثر طفولية.

وقد شهدت العقود الثلاثة الأخيرة تغيرات دورية في كتب الأطفال. وكما في التلفزيون شهد عقد السبعينيات تحولاً ملفتاً نحو الواقعية الجديدة وخرق كثير من المحرمات التقليدية. فكتب الأطفال الصغار مثل كتاب إزرا جاك كيتس Ezra Jack Keats بعنوان صفارة لويلي Whistle for Willie وكتاب مرحباً يا قطة Hi Cat، تصور بألوان غنية وكلمات حساسة قصصاً من حياة أطفال الحي اليهودي (الغيتو). وكتب موريس سينداك Maurice Sendak المفاجئة، خاصة كتاب في مطبخ الليل In The Night Kitchen، حيث يظهر قضيب البطل الشاب واضحاً. ليس لأحد أن يتشاجر مع كتب حساسة ومبهجة فنياً كهذه سوى أن يقول إن الواقعية الجديدة موجودة حتى في كتب الأطفال الصغار. مؤسف أن قلة من الذين يكتبون لصغار الأطفال يتمتعون بما لدى كيتس وسينداك من حساسية.

كما تمخض عن الواقعية الجديدة لعقد السبعينيات كثير من الإنتاج المتدني الذي يعوزه الذوق. ففي إحدى قصص كارل ويذرس Carl Withers، وهي ايني ميني، ميني مو Eenie-Meenie - Minie- Mo، تسقط بعض الدببة السوداء في طلاء أبيض لا تعرف أمهم أنهم أولادها إلى أن يزول الطلاء عنهم بالصدفة. أعتقد أن الغرض من هذه القصة هو القول «إن الأسود جميل»، ولكن لماذا نضطر إلى إزالة الطلاء الأبيض كي

ندرك ذلك؟ إقحام هذا التبييض يعقد الموضوع بالنسبة للأطفال الذين يريدون أن يشعروا أنهم موضع تقدير لأنفسهم وليس مقارنة بالأطفال الآخرين ذوي اللون المختلف.

في الثمانينيات شهد حقل كتب الأطفال عودة إلى الفانتازيا وابتعاداً عن الواقعية مثل ما حدث في التلفزيون. ويتضح ذلك بشكل خاص في ما أصبح يسمى حقل كتاب الراشد الصغير، كتب تساعد المراهقين على الانتقال من أدب الأطفال إلى أدب الكبار. وأخلت واقعية السبعينيات المكان لرومانسيات دبقة وخيال علمي متدن. ومثل كوميديا الموقف العائلية التي ميزت عقد الثمانينيات تعبر رومانسيات المراهقين المعاصرة عن الحنين إلى الماضي. وقد قال دونالد آر. غالو Donald R. Gallo أستاذ الانكليزية في جامعة سنترال كونيكتيكات ستيت يونيڤيرسيتي Central Connecticut State University: «تبدو القصص وكأنها تريد أن تعيد الأولاد إلى الخمسينيات. فالشخصيات دائماً من البروتستانت البيض سكان الضواحي يتحدثون الانكليزية الفصحى في أسر تضم الأم والأب والأولاد وتحمل قيماً تقليدية. حتى أنك لا ترى أي شخصيات من الأقليات حتى في أدوار ثانوية»[13].

يؤكد الكاتب وولتر دين مايرز Walter Dean Myers رأي البروفسور غالو، إذ يقول:

> في سنة 1974 نشر ما يربو على 900 كتاب للأطفال حول تجربة السود. وهذا عدد قليل من الكتب على اعتبار أن

أكثر من 2,000 كتاب للأطفال تنشر سنوياً. ولكن بحلول سنة 1984 تراجع العدد إلى النصف. ومقابل كل 100 كتاب نشرت في تلك السنة (1984) سيكون هناك كتاب واحد حول تجربة السود وقد كانت محتويات أجنحة جمعية المكتبة الأمريكية The American Library Association في اجتماعها هذه السنة في نيويورك تدعو إلى الإحباط. هل أصبح الكتّاب السود فجأة عاجزين عن الكتابة بشكل جيد؟ طبعاً لا، لكننا فقدنا مهارتنا في البيع[14].

ربما كانت هذه الردة ضد واقعية السبعينيات متوقعة بيد أن مجتمعنا يشتط، بما يعني أن الإصلاحيين يجب أن يشتطوا أيضاً. وقد تكون العودة إلى الصورة الرومانتيكية للأسرة والمجتمع الوحيد اللون ردة فعل للإقحام المفاجيء في عالم الواقع في العقد السابق والضغط الهائل باتجاه النمو السريع. هذا في حين يبدو أن هذه القصص الرومانسية السطحية تغذي حاجة الناشئين الماسة لتخيل أسرة وفترة مراهقة أقل استعجالاً.

دافع آخر في السبعينيات غيبه عقد الثمانينيات والتسعينيات، وهو الجهود التي انصبت على إنتاج أدب لا يميز بين الجنسين. في الثمانينيات والتسعينيات بقيت الأفضليات الأدبية للأطفال والمراهقين مرتبطة بجنسهم. يقول العاملون في المكتبات إن الفتيان يفضلون الكتب التي تركز على الأمور العسكرية، والسباق، والقطارات، والطائرات، والأسرار، والزواحف، وجميع أنواع الرياضة، والأشباح والوحوش (خاصة

الكتب التي تعتمد على أفلام الرعب القديمة مثل المومياء The Mummy، والرجل الذئب The Wolf Man).

يميل الفتيان إلى الحديث عن الموضوع أقل مما يتحدثون عن الإدراك والوعي والحساسية. يقول كاسيمو نوزكوفسكي Casimo Nozkowski وهو في سنه الحادي عشر: «الفتيان يحبون الكتب المضحكة حقاً، مثل كتاب دانيال بينكووتر Daniel Pinkwater غزو الرجال السمان Invasion of The Fat Men». وقد سألت عدداً من الفتيان، من ضمنهم ابني برونو وهو في التاسعة، عن نوع الكتب الذي يحبونه. قال برونو فخوراً، مردداً إجابات كثير من الفتيان: «الفتيان يحبون الكتب المقززة». وكان الاسم الذي ذكر كثيراً في هذا المجال هو كتاب: كيف تأكل الديدان المقلية لمؤلفه توماس روكويل Thomas Rockwells How To Eat Fried Worms، فكما يوحي العنوان هذه الرواية تواجه التحدي الأقصى[15].

بينما الفتيات نقيض ذلك، فهن يفضلن الغموض والرومانسيات. إضافة إلى أن الفتيان يفضلون كتباً أقصر من تلك التي تختارها الفتيات. فالفتيات يغرقن في الكتب بينما الفتيان يريدون من الكتب أن تغرق فيهم. كما أن الفتيان غالباً ما لا يقرأون الكتب التي تبدو موجهة إلى النساء. حتى أنني حرمت نفسي متعة قراءة مؤلفات جين أوستين Jane Austen حتى فترة متقدمة من عمري بسبب تحامل غير واع تكوّن لدي

في مرحلة المراهقة، من أنها كاتبة نسائية وبالتالي لا يليق بي كفتى أن أقرأ كتبها.

الاختلافات الجنسية في أدب الراشدين الشباب تتكشف بطريقة أخرى أيضاً. فقصص بلوغ سن الرشد عند الفتيات غالباً ما تنشر ككتب للأحداث، بينما تلك التي تدور حول الفتيان تجد مكانها على قائمة كتب الكبار. ربما ترسخ هذا النهج بالنماذج الأصلية المبكرة، لكنه بقي على حاله لمدة طويلة لدرجة أنه أصبح يعكس مواقف اجتماعية عامة حيال الفوارق بين الفتيان والفتيات. في سنة 1942 نشرت رواية صيف السابعة عشر Seventeen Summer للكاتبة مورين دالي Maureen Daly على قائمة كتب الأطفال على الرغم من أنها رواية رومانسية تمثل نقطة تحول في أدب الفتيات. وبعد ذلك بتسع سنوات قدمت رواية صياد الجاودار Catcher in The Rye لمؤلفها جي. دي سالينجر J.D. Salinger، من قبل ليتيل براون Little Brown كرواية للكبار على الرغم من أنها من كلاسيكيات أدب المراهقين الفتيان. ومنذ ذلك الحين استمرت القصص التي تدور حول الفتيات في التركيز على الرومانسية وكانت غالباً تصنف مع كتب الأطفال. بينما القصص التي تدور حول الفتيان من رواية سيد الذباب لمؤلفه غولدينغ Goldings Lord of The Flies وكتاب سلام منفصل Separate Peace لكاتبه نوليس Knowles تحاول طرق مواضيع أوسع وتضم إلى الدليل التجاري العام للناشر[16].

في الطبعة الثانية من هذا الكتاب أصبحت أثمن أن الشيء

الأكثر أهمية، سواء كان الكتاب يعالج الواقعية أو الفانتازيا، هو نوعية القصة. وقد كتبت:

> أفهم الآن أن الموضوع ليس الفانتازيا مقابل الواقعية. وإنما الأكثر أهمية هو أن تكون الكتب من نوعية عالية. إن ما نسميه كتاباً، سواء كان قصة أو غير ذلك قد لا يكون له أي علاقة بكيفية قراءة الناشئ له. فالكتابة الجيدة، سواء كانت قصصية أم غير قصصية تغني تجربتنا بطريقة تكون دائماً فريدة. ولا يمكننا أبداً أن نعرف ما الذي سيكتسبه الناشئ من الكتاب. ولكن مهما يكن فإن مدى الإغناء يتناسب مع نوعية الكتاب. وبغض النظر عن تبدل تركيز قصص الأطفال فإن القراءة تبقى ثقلاً موازناً للاستعجال والتوتر. القراءة شيء يخضع لسيطرة الأطفال ويستطيعون الاختيار بأنفسهم والتقدم بالسرعة التي يحددونها. كما يستطيع الناشئون أن يجدوا الكتب التي تلائم وضعهم وتطورهم العاطفي والاجتماعي. وفي العالم الكبير الذي لا يملك الناشئون سيطرة تذكر فيه، يصبح الكتاب واحة مريحة.

كتبت هذه السطور قبل ظهور كتب غوزبامبس Goosebumps books لـ آر. ال. شتاين R.L. Stine التي أحرزت أيما نجاح، وقد ظهرت لأول مرة في منتصف التسعينيات وحققت مبيعات تربو على 300 مليون نسخة. وعلى الرغم من أنها ليست بالأدب الجيد، إلاّ أن شتاين يكتب بلغة بسيطة تتناغم مع لغة المجموعة العمرية التي يكتب لها. كما أنه يلبي توق الأطفال إلى الرعب وهم في أمان، يحققه عالم الكتب.

لكن في الحقيقة أتى نشر كتب هاري پوتر Harry Potter من قبل الكاتبة الانكليزية جي. كي. رولينغ J.K.Rowling ليعزز الكلمات التي كتبت سابقاً. عن فتى صغير يشتغل بالسحر، كان لتلك الكتب فعل عاصفة هبت على العالم. كما كتب بول غراي Paul Gray في مجلة تايم Time.

> إلاّ أن كل ما أتى به هاري بوتر من هرج ومرج يبدو غير مألوف وبعيداً عن الحضارة ـ الصفحات المتدفقة التي يبثها المعجبون على الويب، وشهادات الآباء الذين يتعجبون لأن أطفالهم الذين لا يهوون القراءة (حتى الفتيان منهم) ينكبون على كتب هاري بوتر، ويستزيدون. واعترافات أعداد متزايدة من الكبار بأنهم لا يستطيعون مقاومة تلك الكتب.
>
> وفي الحقيقة لا يصعب تصور الأحكام التي تطلقها كتب هاري بوتر. ضع شخصيات محبوبة في أوضاع مشوقة محفوفة بالمخاطر، واترك النتيجة غامضة لأطول فترة ممكنة.لا جديد هنا، لا شيء هنا لم يطرقه رواة الحكايات منذ أيام هوميروس Homer ويوظفونه على أحسن وجه. ولكن تعلم معجبو هاري بوتر المخلصين أن معرفة سحر الساحر لا يعني ممارسة السحر. فسر رولينغ بسيط وغامض كما مقدرتها الخارقة على تغذية الجوع البشري للسحر: إنها تعرف السبيل إلى تغذية الرغبة. ليس قراءة القصة فحسب وإنما العيش في أجوائها[17].

الأفلام السينمائية

كما التلفزيون والكتب، تتفاوت الأفلام السينمائية بين

الفانتازيا والواقعية في مواضيعها، ولغتها، وتصوير شخصياتها. في التسعينيات كان هناك كثير من النزعتين. في الفانتازيا السينمائية كان هناك قصص عن الحيوانات مثل بيب Babe والديناصور Dinosaur والنمل Ants وسباق الدجاج Chicken Run. في الوقت نفسه كان هناك كثير من الأفلام الواقعية. ويصعب أن تصدق في هذه المرحلة التي شهدت أفلاماً مثل شيء عن ماري Some thing About Mary والجمال الأمريكي American Beauty . والفتيان لا يبكون Boys Don't Cry أن مجموعة الرقابة على وسائل الإعلام كان لها أي حضور، فكتب هيس The Heyes office، كانت ناشطة في الثلاثينيات والأربعينيات والخمسينيات. كان مكتب هيس يمنع مشاهد تصور رجلاً وامرأة في السرير، ويمنع الممثلين من استعمال كلمات مثل (جهنم) أو (اللعنة) على الشاشة. وشهد عقد الستينيات الإطاحة بمعظم المحرمات الأخلاقية. وبحلول التسعينيات كان الجمهور قد تعود سماع الكلمات النابية ومشاهدة مناظر العري في الأفلام لدرجة أن تلك المشاهد لم تعد تفاجئ أو تثير حفيظة المشاهدين.

وبحلول عقد التسعينيات لم يعد لدى الآباء حساسية كبيرة تجاه الألفاظ النابية ومشاهد العري والنشاط الجنسي الزائد والعنف في الأفلام لدرجة أننا أصبحنا أقل حذراً حيال السماح لأطفالنا بمشاهدة تلك المواد. كما أن خدمة الكابل التلفزيوني والأقراص الليزرية المؤجرة جعلت مراقبة أفلام الناشئين أكثر

صعوبة بالنسبة إلينا. ولم يعد الآباء ولا الأبناء يكترثون لتصنيف الأفلام إلى فئات مثل PG و R، وX التي أفضل ما يمكن أن يقال عنها إنها غامضة. طالما أن الأفلام المصنفة من فئة X يمكن للأطفال مشاهدتها في البيت ضمن أفلام السهرة التي يبثها الكابل التلفزيوني، وطالما أن القيود المسرحية أصبحت مضحكة.

إلاّ أن الأفلام تؤثر في الناشئين بشكل مختلف عن تأثير التلفزيون والكتب. فالأفلام ترسم بشكل واضح العلاقة بين الممثل والدور الذي يؤديه. وهذا ربما يعود إلى حقيقة أن هوليود تسوِّق «النجوم» بطريقة مختلفة عن التلفزيون. لذلك فإن ما قد يؤثر في الأطفال أكثر مما يرونه على الشاشة هو المداعبات الحيّة للأبطال والبطلات الشباب. وربما كان المعجبون بـ ليوناردو دي كابريو Leonardo Di Caprio أكثر اهتماماً بارتباطه العاطفي بعيداً عن الشاشة من متابعتهم الأدوار التي يؤديها على الشاشة. وهكذا نرى أن المسلسلات التلفزيونية تستعجل الأطفال أكثر بكثير مما تفعل الأفلام. فالتلفزيون يبقي الممثل بعيداً عن الدور الذي يؤديه، لأن الدور لا يختلف كثيراً، أما في الأفلام فإن الدور يتغير تغيراً كبيراً، في معظم الحالات. في التلفزيون يجد الطفل نفسه في الدور أما في السينما فإن الناشئين غالبا ما يجدون أنفسهم في الممثل. فالطريقة التي تتصرف بها ممثلة مثل كيري راسل Keri Rassell (نجمة مسلسل فيليسيتي Felicity التلفزيوني) خلال المسلسل تقدم لمعجبيها مثلاً يحتذى.

ولابد من القول إن الواقعية الجديدة في وسائل الإعلام تركز على الراشدين لحد ما. وتفترض أن الأطفال قد اكتسبوا القمع والمحظورات التي اكتسبها الكبار وأن الواقعية الجديدة تحررهم كما تحرر الكبار.

قد يقول قائل إن انفتاحنا الجديد يقربنا من الأوروبيين. فقد كانت الأفلام الأوروبية، كما الأدب الأوروبي، أكثر علانية في معالجة مواضيع حساسة من الأفلام والأدب الأمريكيين. إلاّ أن الأوروبيين يعتبرون ذلك جزءاً طبيعياً من الحياة اليومية، وعلى الرغم من أنه لا يجوز استعراضه أمام الأطفال إلاّ أنه لا يعتبر شيئاً قذراً يجب إخفاؤه.

ولعل المزعج في استعراض الجنس في وسائل الإعلام الأمريكية هو أنه يقدم «بجرعات كبيرة». فكثيرة هي الأفلام والبرامج التلفزيونية التي تعتمد أيما اعتماد على الثوب المغري والتوريات الجنسية لإضفاء روح من المرح والدراما أكثر من اعتمادها على السيناريوهات الجيدة. وربما كان الاستعراض التلفزيوني باي ووتش Bay Watch، بفتياته اللامعات شبه العاريات وشبانه بعضلاتهم المفتولة، أحدث مثال فاضح يصور الجنس. ويظهر أننا لم نتقدم إلى المدى الذي نعتقد أو نتمنى أن نكون قد وصلناه. فالعري في وسائل الإعلام موجود بشكل جلي، مثله مثل النشاط الجنسي. لكنني لست متأكداً ما إذا كنا أكثر ارتياحاً إزاء تعاملنا مع الجنس اليوم مما كنا في الماضي، على الرغم من صراحتنا وانفتاحنا حياله. فموقفنا المتشدد

حيال الجنس كونه شيئاً «قذراً» ما زال موجوداً بدليل أن أعداداً متزايدة من الناشئين يتابعون «باي ووتش» دون الاعتراف بأنهم يفعلون.

ربما كان هذا هو ما يدفع المغنين الشباب أمثال بريتني سبيرز Britney Spears (التي تروق للمراهقين ولمن هم دون سن المراهقة) لأن تتعرى وتبقى في بيكيني بلون الجسم في معظم حفلاتها. في ما يمثل تحدياً يستعرض تنامي التعصب الكامن تحت تحررنا الظاهري. الموضوع الحقيقي الذي لابد من مواجهته في ضغط وسائل الإعلام لاستعجال نمو الأطفال ودفعهم إلى فهم الكبار للجنس هو عما إذا كان مقدار الإخماد صحي لعملية النمو. كان فرويد يرى ذلك، ليس لمجرد أنه كان ڤيكتورياً. لقد أدرك فرويد أن إخماد بعض الميول الغريزية أمر ضروري للحياة الاجتماعية. فإذا لم نخمد بعض دوافعنا العدوانية، نعود إلى حياة الغاب. نبقى منضبطين بالأعراف الاجتماعية التي تحدد التصرف الاجتماعي. فجوهر الحضارة هو التصرف الذي تضبطه الأعراف.

والواقعية في وسائل الإعلام عامة، وفي السينما خاصة، يجب ألا تعني أن «كل شيء مباح». لأن النمو يعني أيضاً تعلم ضبط الدوافع والتصرف بطرق مقبولة اجتماعياً، الأمر الذي يتطلب الوقت والجهد منا كآباء. وعندما يتعرض أطفالنا لتصرف

سيئ قبل معرفتهم بالأعراف، فإنهم قد يرتبكون وينسحبون انسحاباً كاملاً، أو، وهو الأكثر شيوعاً، قد يدفعون من قبل أندادهم نحو تصرف ليسوا مستعدين له حقاً.

يحمل العنف الجلي السائد في وسائل الإعلام الوالدين عبء مراقبة أكبر في وقت نحن أقل قدرة على ذلك. بتعبير أصح، فإن عبء ومطالب المراقبة ازدادت علينا في وقت تناقص الوقت المتاح لممارسة تلك الرقابة. وتنوه أبحاث أجريت مؤخراً بأن الأبوين يعملان ساعات أطول ولا يبقى لديهما وقت كاف لتربية الأطفال كما كان متاحاً في السبعينيات والثمانينيات. كما أصبح الوقت أضيق بسبب ازدياد عدد الاسر التي عمل الأبوان فيها، وازدياد عدد الأسر التي تعيش في ظل أحد الوالدين دون الآخر.

لكننا بحاجة إلى المراقبة. وهي ضرورية ليس بسبب تصور خاطىء بأن الطفولة مرحلة بريئة يجب حمايتها، وإنما لأن الأطفال يحتاجون إلى تأهيل اجتماعي، ومهمتنا كآباء هي أن نعلمهم آداب السلوك المقبول إجتماعياً. تلك الآداب والحدود التي نرسمها تنغرس في النفس تدريجياً وتصبح آلية تحكم تصرفات الطفل دون أن يعيها. والخطر الحقيقي في النمو السريع هو أن الأطفال قد يتعلمون قواعد الحرية الاجتماعية قبل أن يتعلموا قواعد المسؤولية الاجتماعية. هذا التسلسل المعكوس يزيد احتمال التصرف غير المهذب.

الموسيقى

تتسم حضارتنا بأنها بصرية، فنحن نهتم بما نرى ـ من جنس وعنف في التلفزيون والسينما، مثلاً ـ أكثر من اهتمامنا بما نسمع. لكن الموسيقى، كما قال تايبر غور Tipper Gore منذ بضع سنوات، تستطيع أن تؤثر في الناشئة تأثير وسائل الإعلام المرئية. وقد أدرك الفلاسفة والمنظرون قوة الموسيقى منذ زمن بعيد. فقد أراد أفلاطون إخضاع الموسيقى في جمهوريته للمراقبة لأنه خشي أن «تغري مواطنيه وتفسدهم بأجواء ضعيفة شهوانية تجعلهم يستسلمون لأحاسيس مفسدة للأخلاق».

والموسيقى الشبابية لا تتوجه إلى الوعي بقدر توجهها إلى اللاوعي أو مستوى الإدراك اللاواعي، وهذا يسهل استبعاده. وربما كان الأكثر أهمية هو أن الموسيقى الموجهة إلى الشباب اليوم لا تهدف إلى استعجال نضجهم بقدر ما تهدف إلى تقديم مخرج للهروب من الضغوط التي تدفعهم نحو النمو السريع. تضع صناعة الموسيقى الجيل الفتي أمام شخصيات تخاطب مخاوفهم ومسراتهم وخيالاتهم، كما تخاطب الضغوط التي لا تنتهي، للأسرة والمدرسة والجنس والمخدرات والسيارات.

الشباب هم السوق التي تتداول صناعة الموسيقى، خلاف التلفزيون الذي لا يخصهم سوى بحصة صغيرة من عروضه. والإعلانات الموسيقية تتوجه مباشرة إلى المراهقين، وليس من الغرابة في شيء أن ترى أحد النجوم الصاعدة يبيع أي شيء من

الصوداً إلى الجعة، ولا يظهر في الحفلات فقط وإنما في التلفزيون والسينما. إن مقدار الوقت الذي يخصصه الجيل الفتي للاستماع إلى الموسيقى قدر بنحو ست ساعات في اليوم. وقد أفادت رابطة صناعة التسجيل في أمريكا في سنة 1996 أن مبيعات الـ LP والـ CD والأشرطة تجاوزت 8 مليار دولار. وقد غطت مشتريات الجيل الفتي الذين تتراوح أعمارهم بين العاشرة والتاسعة عشر 30 في المئة من إجمالي مبيعات الموسيقى.

الموسيقى متاحة في جميع أوقات الليل والنهار، حتى أنك ترى المراهقين يضعون سماعات المسجلات الجوالة في آذانهم أثناء أداء وظائفهم البيتية. كما أن إدخال أشرطة التسجيل المرئي الموسيقية وقنوات الاشتراك بالكابل تتيح للأطفال مجالاً آخر للاستماع إلى الموسيقى ومشاهدتها. والآن يستطيع الناشئة نقل الموسيقى من الانترنت إلى أجهزة الكومبيوتر الخاصة بهم مما يشكل مصدراً آخر يزود الناشئة بالموسيقى. والضغط الذي يمارس على الأطفال كي يستمعوا ويشتروا «النوع المناسب» من الموسيقى ما هو إلاّ طريقة أخرى من طرق استعجالهم، ومن يستمع إلى ما يمكن أن يصبح مقياساً اجتماعياً فيما بينهم!

والموسيقى الشبابية، مثل الأشكال الأخرى من التسلية الدارجة، توحي بالراحة من التوتر الذي يسببه الوالدان والمدرسة والمسؤوليات وما إليها من خلال مخارج مختلفة كثيرة أكثرها شيوعاً هو الجنس، والهروب (الذي غالباً ما يعني المخدرات)، والفانتازيا، والعصيان. وهناك قدر كبير من

التحريض الجنسي القوي المتضمن بشكل يصعب لمسه في كلمات الأغاني وإيقاعها وشكل المغنين الشعبيين. وقد كتب المؤرخ والناقد الكلاسيكي الراحل آلان بلوم Allan Bloom يقول:

> موسيقى الروك تقدم وجبة واحدة فقط، هي وجبة متوحشة للرغبة الجنسية - ليس الحب، وليس الجنس وإنما الرغبة الجنسية غير مصقولة وغير منضبطة. إنها تعترف بالانبثاق الأول لشهوات الأطفال الحسية التي بدأت بالبروز. تخاطبها بجدية وتثيرها وتعطيها شرعية، ليس كما تعطى البراعم الصغيرة التي يجب رعايتها باهتمام كي تتفتح عن زهور جميلة، وإنما معاملة الشيء الحقيقي. موسيقى الروك تقدم للأطفال، على طبق من الفضة، وبكل ما لصناعة RD «جامعة دمشق» التسلية من سلطة عامة، كل ما كان الأبوان يقولان لهم إن عليهم تأجيله حتى يكبروا وأنهم سيفهمونه فيما بعد..الجيل الفتي يعرف أن لموسيقى الروك إيقاع العملية الجنسية. لهذا كانت بوليرو راڤيل Ravel's Bolero المقطوعة الوحيدة من الموسيقى الكلاسيكية التي يعرفها الجميع ويحبونها. وبدمج بعض الفن الحقيقي وكثير من الفن الزائف، تقوم صناعة هائلة بتوجيه الذوق نحو حالة من الطقوس العربيدية من الأحاسيس المرتبطة بالجنس، تقدم فيضاً من المادة المتجددة لذوي الشهية الشرهة. لم يكن هنالك أبداً أي شكل من أشكال الفنون موجه حصراً هكذا للأطفال[18].

يعتمد معبودو المراهقين إلى حد كبير على «جاذبيتهم

الجنسية» في استقطاب المعجبين. منذ قرابة عشر سنين كانت مادونا، التي كان معظم جمهورها من الفتيات الصغيرات، تقديم أغانيها مرتدية ثياباً داخلية فحسب؛ وكانت تغني، بين أشياء أخرى، عن العذرية وحمل المراهقات. وفي أغنية «يا بابا لا تعظني» «Papa Don't Preach»، تخبر فتاة مراهقة والدها بأنها ستحتفظ بوليدها. تقدم مغنية مثل مادونا صورة للفتاة الطيبة والفتاة السيئة. وما من شك في أن كثيراً من معجباتها الشابات يجدن أنفسهن في المواضيع التي تطرحها حول الحرية الجنسية والضغوط الأبوية، والاكتشاف، حتى إذا لم يدركن تماماً فحوى ما تقول.

واليوم تخاطب بريتاني سپيرز Britney Spears الجمهور نفسه، وتظهر أيضاً في ثياب فاضحة تحرك الغريزة الجنسية. إلا أن أغنياتها أكثر رومانسية وأقل تحريضاً على الثورة من أغاني مادونا. وبهذا فإن أغانيها تعكس ما يحدث أيضاً في مجلات وأدب النساء الصغيرات. تشرح مجموعتها الأخيرة Oops, Idid It Again كيف شجعت أحد الفتيان على حبها، ولكنها لا ترى ذلك خطأ جسيماً يحتاج إلى اعتذار. وتتصف المواضيع التي تطرحها بريتني سبيرز بأنها أكثر ملاءمة للتطور من مواضيع مادونا، مما يقربها ممن هم دون سن المراهقة.

ولما كان أبناء الجيل الفني يعتمدون على المغنين والفرق في تطورهم، فإنهم يمرون بالفرق بسرعة كبيرة. ربما يستمع صغار المراهقين اليوم إلى فرقة نيوكيدز أون ذا بلوك New Kids

On The Block، وباك ستريت بويز BackStreet Boys، وان سينك N. Sync لكن المراهقين الأكبر سناً يحتقرون هؤلاء المغنين ويستمعون إلى فرق الروك مثل بلينك Blink 182/182 وديستني غيرلز Destiny Girls. توجد الآن صناعة قائمة مكرسة لابتداع فرق روك جديدة مثل ان سينك لتلبي حاجة البحث عن هوية لكل عصبة جديدة من صغار المراهقين والفتيان دون سن المراهقة.

الجنس ليس المتنفس الوحيد الذي تقدمه موسيقى الروك للمراهقين. فالمخدرات والعصيان والعنف كانت دائماً مواضيع أساسية في موسيقى الروك أند رول. وتركز فرق هيفي ميتال (المعدن الثقيل) التي تحمل أسماء مثل العذراء الحديدية Iron Maiden، وايه سي / دي سي Ac/Dc، وموتلي كرو Motley Crue، على هذه المواضيع أيما تركيز. وعلى الرغم من أن هذه الفرق كانت رائجة في العقد الماضي إلا أنها بعثت ثانية مؤخراً وطرحت ألبومات جديدة في سنة 2000:

> لطالما كانت فرق هيفي ميتال العورة القذرة لموسيقى الروك، يحتقرها الكبار بينما يحبها المعجبون، وهي الآن الموسيقى المحصنة للشباب الأمريكي، خاصة المراهقين البيض الذكور من سكان الضواحي. وبينما تتبدل المواصفات الدارجة، فإن صيغة الهيفي ميتال تبقى ثابتة: قرع الطبول، وزئير الغيتار/وعويل وصراخ المغنين، والكلمات التي تتجاوز كل المحرمات.. الموضوع الرئيسي لفرق الهيفي ميتال بسيط وشامل، فهو يعتمد على النخير

والتأوهات والقصائد غير الأدبية، لتجمد الأحاسيس التي بدأ المراهقون يكتشفونها في مجالات الرفض والجنس والأسرة والعمل الوضيع تصور معظم فرق الهيفي ميتال مشاركة بلا حدود[19].

الهيفي ميتال، مثل موسيقى الراپ Rap (التي تحظى بشعبية بين أوساط المراهقين السود والبيض) مصممة لتذاع بصوت عال. إنها موسيقى يكرهها جميع الآباء، وتعبر من خلال ضرباتها العدوانية وارتفاع صوتها، والمواضيع التي تطرحها عن مشاعر القلق والإحباط لدى المراهقين. ولطالما انتقدت موسيقى الهيفي ميتال والأنواع الأخرى من الروك أند رول لأنها تشجع على تعاطي المخدرات والعنف ضد النساء، وعلى الرغم من عدم وجود دليل على أي ترابط بين الاثنين، فإن الهيفي ميتال والأشكال الأخرى من الموسيقى الدارجة، تخاطر فعلاً باستعجال مستمعيها الصغار للاهتمام السابق لأوانه بأمور ليست من شأنهم بعد، كما تعطي بريقاً لتعاطي المخدرات، والسيارات السريعة، والجنس السهل.

سيبقى الجنس والمخدرات والمشاركة مواضيع أساسية في موسيقى الروك أند رول، ويندر أن تجد فرقة تحاول أن تحل النزاع بأي وسائل بديلة. ولكن منذ نحو عشر سنوات ظهرت مجموعة جديدة من المغنيات ـ مثل ديبي جيبسون Debbie Gibson التي كانت وقتها في السابعة عشر، وتيفاني Tiffany في عامها السادس عشر ليغنين للحب وليس للجنس. كانت

أغنياتهن عاطفية ومحتشمة، ولقين رواجاً كبيراً بين أوساط المستمعات الشابات.

وقد استجابت فرق ومغنون آخرون بإحساس بالمسؤولية تجاه خطر الإيدز والآثار السلبية لتعاطي المخدرات بطرح طرق بديلة للحياة والإحساس بالمتعة.

يبدو أن موسيقى الروك بجميع أشكالها تعطي الجيل الفتي متنفساً من الضغوط التي تمارس لتسرع نموهم، من الإحساس بالدونية، ومن الفراغ العاطفي الذي تولده هذه الضغوط. ويخفف التوتر المخيم من خلال بعض مواضيع الروك، حيث يخفف الإحساس بالوحدة عن طريق النشاط الجنسي والانتصارات، كما تعالج آلام مواجهة الحقيقة بالهروب بواسطة المخدرات وبالرفض، والخيال. واليوم تشارك موسيقى الروك جمهورها الشاب بالموسيقى والأغاني الشعبية البسيطة لتعكس حقيقة أن شباب اليوم أقل رفضاً وتمرداً من الأجيال السابقة. على الرغم من ذلك ستبقى فرق موسيقى الروك مؤشراً للجيل الفتي أنه يتقدم نحو النضج كما ستبقى وسيلة للبقاء صغاراً في عالم يرغب أن يدفعهم نحو السن الكبير بشكل أسرع من المعقول.